

## الفصل الثالث

### المراحل التاريخية

تعتبر المرحلة الأولى في تاريخ البدو هي الاستيلاء الحقيقي على مصر، فهي تبدأ من الفتح الذي حققه جيش عمرو بن العاص، وتستمر طوال الفترة التي كانت تحكم فيها مصر بواسطة حاكم من أصل عربي أو حتى بدوي، أي إلى عام (٢٣٨هـ) - (٨٥٢م).

فقد كان هذا عصر دخول القبائل بكثرة، وفترة إقامتهم واختيارهم لمناطق نزولهم عن طريق الارتباج، تلك الرحلة الربيعية التي وضع نظامها عمرو بن العاص؛ لكي يوفر لبدو الفتح وقتاً سنوياً يقضونه في الحياة البدوية.

وهو كذلك العصر الذي كان فيه البدو يستدعون من طرف الوالي، إما من أجل أن يكونوا بجواره إذا كان الأمر يتعلق بأهله وعشيرته، وإما من أجل تزويده بالرجال المخلصين الذين يمكنهم أن يعتمد عليهم في تولي مهام الإدارة في البلاد.

وهذا يعني أن البدو كانوا متفقيين تماماً مع الولاة الذين حكموا مصر من طرف الخلفاء الراشدين، وكانت طاعتهم لهؤلاء الولاة هي طاعة صارمة. فمثلاً كان الحظر الذي ضرب على هؤلاء البدو والقاضي ألا يمارسوا الزراعة، كان هذا الأمر ساري المفعول طوال قرنٍ لاحقٍ لصدوره، ولم يرفع هذا الحظر إلا حوالي عام (١٠٩هـ) - (٧٢٧م) بأمر عامل الخراج في مصر، عبيد الله بن الحبحاب القيسي، ولحظتها ابتدأ بدو مصر - وخاصة القبائل العدنانية التي كانت قد وصلت حديثاً - في فلاحه التربة، وإن هذا لحدث هام في تاريخهم، فلقد عرف البدو من واقع هذه الحقيقة ظروفاً صالحة لاستقرارهم، أو على الأقل نوعاً من الإثراء الذي سيشتبهون به بمرور الوقت، والأمويون أنفسهم لم يترددوا في منح البدو المساعدات المالية لكي تتجح مهمتهم الزراعية.

ولكن من هنا ستبدأ المناوشات التي وقعت بين البدو والسلطة بخصوص موضوع الضريبة على الأرض المنزرعة؛ فإن الخلفاء العباسيين على العكس من سابقهم من الأمويين سيطالبونهم بدفع ضريبة عقارية على الأراضي التي منحت لهم ليزرعوها. ومن هنا جاءت القائمة الطويلة من القلاقل التي كان سببها هؤلاء البدو الذين رفضوا الوفاء بهذه الضريبة.

ويمكن أن نستشف المكانة التي احتلها البدو في تنظيم الدولة الإسلامية بمصر في القرنين الأولين من الهجرة، مما اتخذ معه من تدابير ضدهم، ابتداء من اللحظة التي حاولت فيها أجناس أخرى أن تحل محل العرب في ممارسة السلطة، وابتداء كذلك من وقت أن أصبحت فيه العائلات الحاكمة ليست من العرب الخالص.

ويعتبر الخليفة المعتمد، الذي كانت والدته من أصل تركي، هو أول من أمر في عام (٢١٧) هـ - (٨٣٢م) واليه بقطع العطاء عن بدو مصر، وشطب أسمائهم من سجلات الديوان. وفي الوقت نفسه، عمل على التقليل من عدد العرب في الجيش، وإحلال الترك محلهم. وأخيراً، وفي عام (٢٣٨) هـ - (٨٥٢م) عين آخر وال عربي في مصر، وسيخلفه وال آخر من أصل فارسي، وبدا أصبح البدو لا يحكمون بعد ذلك بواسطة فرد من أبناء جلدتهم، وإلي حين وصول الفاطميين إلي قاهرته. وهنا تنتهي أول فترة في تاريخ القبائل العربية في مصر.

وخلال المائة والعشرين عاماً التي تلت - أي إلي تاريخ استيلاء الفاطميين على السلطة في عام (٣٥٨) هـ. (٩٦٩م) - فإن المعلومات النادرة التي وصلتنا عن بدو مصر، تشير إلي أنهم قد عاشوا حياتهم على هامش السلطة؛ فقد كانت القبائل يزداد عددها وتغنتي، ولكنها لا تبحث إلا عن المغامرة، فنرى أن بني مدلج يستولون على جزء من الدلتا والإسكندرية نفسها حوالي عام (٢٥٣) هـ - (٨٦٧م). كما أعد أحد العمريين حملة تأديبية ضد قبائل البجة في النوبة "غضباً لله وللمسلمين"، وهي إغارة لم يتحرك لها ابن طولون الذي كان يحكم مصر في ذلك الوقت إلا بعد فوات الأوان، هذا بالرغم من أن قبائل بدوية كثيرة ومن أشدها بأساً،

كانت قد اشتركت في هذه العملية، وكان من بينها على وجه الخصوص بنو ربيعة الذين تمكنوا على إثر هذه الواقعة من عقد اتفاق مع الفريق المسلم من قبائل البجة مكنهم من فرض سطوتهم على منطقة المناجم بأجمعها، وهي منطقة وادي العلاقي، كما أتاح لهم كذلك - وعلى المدى الطويل - تأسيس إمارة عربية تضم أسوان.

إننا إذا أردنا أن نلخص تاريخ بدو مصر إبان الحكم الفاطمي، فيمكن القول بأنهم كانوا يحظون برضا، وأنه على العكس مما سيقال عنهم تحت حكم المماليك، فإن مركزهم كان قد تثبت وزادت أهميتهم، فهم يحيطون بالوزراء وحتى بالخليفة نفسه. وإذا كان علينا أن نبرهن على هذا، فلنذكر بخصوص مركز البدو ومكانتهم ما حظي به رئيس قبيلة بني ربيعة الذي أصبح يعرف بـ"بكنز الدولة"، وعرفت قبيلته بالتالي بقبيلة بني الكنز. هذا دون أن يغيب عن أذهاننا ظهور الشخصية الخرافية لأبي زيد الهلالي، هذا البطل الذي اشتهر بين فلاحي مصر والسودان. أما عن أهميتهم في الحياة العامة فإنها غالباً ما تظهر في كل مرة يلجأ فيها فريق من الفرق الممتازة إلى القبائل البدوية لكي يعزز أنصبته من النجاح؛ ويبدأ هذا فعلاً من أيام الحاكم بأمر الله، عندما رأينا أبا ركوة، الذي استنجد ببدا البحيرة وضمهم إلى صفوفه واستمالهم في محاولة إحياء الخلافة الأموية، فطرد الفاطميين.

ولقد ثبت كذلك أن البدو كانوا يحيطون بالخليفة. فقد رأينا مثلاً أن واحداً من الموكبين اللذين كانا يرافقان الحاكم بأمر الله عند خروجه واختفائه آخر مرة، كان مكوناً من بدو بني سويد. كما رأينا كذلك أن بدوية من بني طيبي قد تزوجت الخليفة الأمر، وأن هذا الأخير لكي يسترضيها، شيد لها قصر الهودج؛ تمشياً مع رغباتها البدوية. وأخيراً كثيراً ما اختير الوزراء من أبناء القبائل البدوية كما حدث بالنسبة لشاور السعدي الذي ينتمي إلى سعود بني جذام.

وإذا أردنا أن ننظر إلى الأمور بوجهة نظر عامة، فيمكننا القول بأنه طالما كان سلطان الخلفاء الفاطميين في عنفوانه وقوته، فإن البدو كانوا بجانبهم. ثم حدث بعد ذلك وعلى التحديد بعد موت اليازوري في عام (٤٥٠هـ). ثم أصبحت القبائل

تستخدم في تعزيز النضال الناشب بين الطامعين في الوزارة؛ وكذلك ابتداء من اللحظة التي حشد فيها ابن مصال البدو لتكوين فريق يدين له بالطاعة مباشرة دون طاعة سيده الخليفة الظافر، فإن البدو أصبحوا يساقون إلي جانب هؤلاء الطامعين سواء ضرغام، أو شاور السعدي، بدلاً من انحيازهم إلي الخليفة الذي كانت حياته تدور بعيداً عن الممارسة الفعلية للحكم.

وكنا نود أن نعرف ما إذا كان استعمال هؤلاء البدو بواسطة الفرق المختلفة إنما ترجع أسبابه إلي ثرواتهم، أم إلي قوتهم الحربية، أم أن آراءهم ونصائحهم كانت لها واقع وقيمة في تقرير أمور البلاد، ولكن الوثائق التي تحت أيدينا - وما هي عليه حتى الآن - لا تسمح لنا إلا في القليل النادر، بأن نجيب على هذه الأسئلة. لقد عرف البدو خلال حكم الفاطميين لمصر الذي دام حوالي قرنين أوج عنفوانهم، فقد وصل توسعهم إلي أقصاه، كما أن عدد القبائل كان دائماً في ازدياد نتيجة كثرة دخولهم إلي البلاد بتشجيع من الخلفاء الفاطميين أنفسهم، في الوقت الذي قلّت مرات مغادرتهم للبلاد - مع ما كانت تحمله هذه المغادرات القليلة من نتائج تاريخية هامة، كما حدث في حالة بني هلال وبني سليم. أما عن ثراء البدو فيبدو أنه كان ثراء فاحشاً، فقد كانوا يكيلون ذهبهم بالقدح.

وكان اضمحلال الفاطميين هو كذلك اضمحلال للبدو. فعندما فقدت هذه الأسرة الفاطمية الحاكمة سلطانها في مصر، فإن البدو سيفقدونه أيضاً. وبذا تنتهي الفترة التي كان فيها بدو مصر في ذروة ازدهارهم.

إن إحساس البدو بالآثار الناجمة عن وصول سلطة من جنس مخالف للجنس العربي إلي مصر لن يتم إلا مع بعض التأخير. والواقع أن حكم الأيوبيين في تاريخ بدو مصر لا يمكن تشبيهه إطلاقاً بما ستكون عليه السيطرة الشرسة للمماليك بالنسبة لهم. وصحيح أن الأيوبيين ينتمون إلي الجنس الكردي، وأنه بناء على ذلك فإن المشاعبات بين السلطة والبدو لم تعد من "الأمر العائلية" التي كانت تتسم بها العلاقات بين البدو والفاطميين.

وصحيح كذلك أن صلاح الدين قد قمع هؤلاء البدو بكل شدة، ولكن وقفة صلاح الدين ضد البدو لم تكن على ما يبدو تحدها سوى الضرورة التي كانت تملئها عليه ظروف انتصاراته على الفرنج لإقامة دعائم حكمه وإعلاء شأن الإسلام. وكان عليه لكي يصل إلي هذا الهدف المزدوج، تحييد البدو ومنع تأثيرهم، فقد كان للبدو اتصالات مسالمة أكثر من اللازم مع الصليبيين. ومن جهة أخرى فإن شعورهم وولاءهم للفاطميين ربما قادم إلي الانقلاب على السلطة التي كانت حديثة عهد بالبلاد، وهو الأمر الذي حدث على أيدي بني الكنز في بداية عصر صلاح الدين، ومن هنا جاءت أهمية أن يتفوق الأمويون حربياً على المتمردين من البدو وإقصائهم بعد ذلك - وبأكبر قدر مستطاع - من صفوف جيوشهم التي كانوا يعولون عليها في مواجهة الصليبيين؛ وكذلك بمنع وقوع أي نوع من التعاون الصريح بين البدو والصليبيين، وذلك إما عن طريق نقل القبائل المتورطة من أماكنها، وإما عن طريق مصادرة شحنات القمح من محاصيل البدو، حتى لا يتمكن هؤلاء الآخرون من الذهاب لبيعه إلى الفرنج.

هذا وقد قامت علاقات طبيعية بين السلاطين الأيوبيين الذين حكموا مصر بعد صلاح الدين وبين البدو الذين لم يتمكنوا مع ذلك وإلى غير رجعة أن يتبوءوا مركزهم الذي منحهم إياه الفاطميون طواعية، وعن طيب خاطر، وخاصة إلى من هم جديرون بذلك من بين هؤلاء البدو. ولكنهم في الوقت نفسه لم يعاملوا على أيدي الأيوبيين "كخارجين على القانون" كما سيحدث لهم تحت حكم المماليك. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد كان العصر الأيوبي ومعاركه الأولى ضد البدو عاملاً من عوامل التقريب بين البدو والسكان المصريين الذين ساعدوهم ضد سادة البلاد الجدد.

وأخيراً، وبعد أن تقبل البدو هؤلاء السادة الجدد، فإننا نراهم يحيطون بالسلطان، ويرتبطون به بعلاقات الصداقة، إما بصفة شخصية أو على مستوى القبيلة بأجمعها، كما كان الحال بالنسبة للجعافرة من آل جعفر الطيار، كما نراهم

أيضاً وهم يشاركون مشاركةً فعالةً في المعارك التي استمر الأيوبيون في شنّها ضد الصليبيين. وهناك دلالة لها مغزاها فيما يتعلّق بالأيوبيين، فقد سعوا إلى وضع شجرة نسبهم ليظهروا بها بمظهر المنحدرين من أصل عربي. وعلى هذا، فقد كان العصر الأيوبي بالنسبة للبدو فترة انتقال، وهي وإن لم تكن فترة مجيدة كما كانت بالنسبة لهم في فترة الحكم الفاطمي، فإنها على أي حال لم تكن مختلفة اختلافاً كلياً عن سابقتها، ولكن القطيعة ستحدث بالضبط عندما يستولي المماليك على حكم مصر.

فما أن تولى المعز أيبك التركماني عام ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) مقاليد الأمور كأول سلطان من السلاطين المماليك في مصر، حتى تجمع البدو ضده، وضد هويته وضد ما كان يمثله، فالبدو ينكرون على رقيق من الأرقاء أية إمكانية في قيادتهم، في قيادة هؤلاء البدو الذين كانوا من العرب كريمي النسب والمحتد، وهم في حقيقة الأمر قد اعتادوا على شراء الرقيق وبيعه أكثر من اعتيادهم على طاعة أي فرد منهم. لقد سمحت لهم الأخلاقيات البدوية في تقبل الأيوبيين وهم الغرباء حقاً ولكنهم كانوا رجالاً أحراراً. وجعلت هذه الأخلاقيات نفسها من الصعب عليهم الخضوع للمماليك، مهما كان هؤلاء الأرقاء المماليك هم سادة مصر. ومن هنا اتحدت القبائل للإعداد للمعركة ضد المماليك. فمن ذا الذي سيتأسس هذه الحركة؟ في الوجه البحري، قادت هذه الحركة قبيلة بني سنبس<sup>(١)</sup>، هؤلاء البدو الذين قدموا مؤخراً إلى مصر في عصر المستنصر الفاطمي. أما الوجه القبلي، فقد تولت القيادة فيه الجعافرة، هذه القبيلة التي غمرها الأيوبيون بأفضالهم وبحظوتهم، ولقد اجتمعت كل القبائل الأخرى وتعصبوا حول هاتين القبيلتين.

(١) هم بطن من طيئ من القحطانية، منهم طائفة سكنوا العراق، وطائفة سكنوا دمياط بمصر. تهامة الأرب في معرفة أنساب العرب، القلقشندي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٤م، ص ٢٧٣، وكحالة: "معجم القبائل العربية"، ٢ / ٥٥.

واختار البدو رئيساً لهم في شخص الشريف حصن الدين ثعلب، الذي قال عنه القلقشندي: إنه قد سخط على سلطنة هؤلاء المماليك، وسمت نفسه إلى السلطنة فأعلن عندئذ أن البدو هم أصحاب البلاد وأنهم أحق بالسلطة من المماليك.

\* \* \* \* \*